

غرض البصر

نعمة البصر من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان ، ومن جليل إحسانه سبحانه وتعالى ، بها يهتدي المرء في سبيله وطريقه ، وبها يعيش الإنسان حياته بصورة ميسرة مستقلة ، تساعد على السعي في الأرض وعمارتها والقيام بالخلافة فيها ، وتساعد على القيام بواجب العبودية لله (عز وجل).

وقد امتن الله تعالى بهذه النعمة على عباده في آيات كثيرة، منها: قوله سبحانه: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [المؤمنون: ٧٨]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [الملك: ٢٣].

ونعمة البصر نعمة جليلة لا يكافئها عمل الليل والنهار وإن بلغ خمسمائة عام ، فقد جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جَبْرِيْلُ أَنْفَا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبْدَ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) حَمْسِمَائَةَ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطَوْلُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَرَسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً يَعْزُضُ الْأُصْبِعِ تَنْبِضُ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ وَشَجَرَةَ رُمَانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَانَةً يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ ، فَإِذَا أُمْسَى نَزَلَ فَاصَابَ الْوُضُوءَ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِيصَلَاتِهِ ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَن وَاقْتِ الْأَجْلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لَشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ ، قَالَ: فَفَعَلَ فَتَحْنُ نَمْرٌ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَجَدَّ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ : أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي فَيَقُولُ: رَبِّ بَلِّ بِلَّ يَعْمَلِي فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلِّ بِلَّ يَعْمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَائِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ ، فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصْرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ حَمْسِمَائَةَ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ) (رواه الحاكم).

على أن سنة الله (عز وجل) في النعم أن كل نعمة إنما تبقى وتزيد بالشكر ، وتضمحل وتزول بالجحود واستعمالها في المعاصي، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، لذا كان من دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يديم عليه نعمة السمع والبصر ما دام حيًّا ، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قَلَّمََا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه

وسلم) يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ يَهُودَاءَ الدَّعَوَاتِ: (اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّمْنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا) (رواه الترمذي).

وغض البصر من الآداب والأخلاق التي حثَّ عليها ديننا الحنيف ، فقد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) باجتنب المواطن التي تؤدي إلى النظر المحرم ، ومنها : الجلوس في طرقات المسلمين ، لما فيه من الفتن ، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ). قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (رواه مسلم).

وأصل الغض: الخفض والكف والكسر ، والإغضاء: إدناء الجفون ، ومعنى غض البصر: أن يغمض المسلم بصره عما حُرِّم عليه ، ولا ينظر إلَّا لما أبيض له النَّظَرُ إليه ، فإن اتَّفَقَ أن وقع البصر على محرِّم من غير قصد صرفه سريعاً ، والبصر هو أوسع الأبواب الموصلة إلى القلب ، وأقصر طرق الحواسِّ إليه ، ومن أجل ذلك كثر السَّقُوط من جهة إطلاق البصر ، وجريمة الفتنة المترتبة على إطلاقه ، ووجب التحذير منه ، وتأكد وجوب غضِّه عن جميع المحرِّمات ، وعن كلِّ ما يخشى منه الفتنة والضلال .

وقد جاء الأمر من الله (عزَّ وجلَّ) بغض البصر عاماً في الرجال والنساء على السواء ، وذلك لخطر النظر الفاحش من كلا الطرفين للآخر ، ولما في ذلك من فوائد دينية ودينية ، ولأجل هذا دعا الإسلام أتباعه إلى غض البصر ، فقال تعالى: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } [النور: ٣٠، ٣١]. فَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ مَأْمُورَانِ بِغَضِّ الْبَصَرِ عَمَّا يُثِيرُ الشَّهْوَةَ أَوْ يُسَبِّبُ الْإِفْتِتَانَ ، وعلى ذلك فلو غض الإنسان بصره لاطمأنت نفسه وهدأ قلبه وسكن فؤاده. وقد راعى الإسلام في الإنسان الخطأ غير المقصود ، فلم يغفل ما قد يقع من الناس بدون قصد منهم، لذا أمر من نظر إلى امرأة أجنبية أن يصرف بصره عنها ولا يتمادى ، لما رواه مسلم في صحيحه عَنِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنِ

نَظَرَ الْفُجَاعَةَ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصْرِي (رواه مسلم)، وَعَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (يَا عَلِيُّ لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَكَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ) (رواه الترمذي).
 على أن النظر إلى محل الشهوة يوقع الإنسان في المحذور ، فهو من باب خطوات الشيطان الذي يأخذ بالأسر ثم الأكبر حتى يصل بالمسلم إلى الكبائر ثم الكفر البواح ، فلينبته المسلم لعاقبة نظره ، وليعلم أن النظر يثير الشهوات الكامنة التي لو وجد لها سبيلا وتمكن من إنفاذها لكان النظر سبب الفواحش ، فلينبته العبد لخطوات الشيطان ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٢١].

ولما كانت النظرة بريد الزنا جاء وصفها بأنها سهم من سهام إبليس يصاب به المرء فيقع في مصيدته ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): قَالَ اللَّهُ (عز وجل): (إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبَدَلْتُهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ) (رواه الحاكم في المستدرک) ، والله در القائل:

كل الحوادث مبداهها من النظر *** ومعظم النار من مستصغر الشرر
 كم نظرة بلغت من قلب صاحبها *** كملخ السهم بلا قوس ولا وتر
 والعبد ما دام ذا طرفٍ يُقلِّبه في *** أعين الغيدٍ موقوفٌ على الخطر
 يسر مقلته ما ضرَّ مهجته *** لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

وكذلك جاء الأمر من النبي (صلى الله عليه وسلم) بغض النظر عن العورة وعن محل الشهوة ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي التَّوْبِ الْوَاحِدِ) (رواه مسلم).
 والنظر المحرم المنهي عنه يتناول النظر إلى الأموال واللباس وغير ذلك من متاع الدنيا بشره وحسدٍ ، قال تعالى: {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ١٣١].

أمور تعين على غض البصر:

١. الزواج ، فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال :
(يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ
يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (رواه مسلم).
٢. استحضار مراقبة الله تعالى للإنسان ، فليكن لسان حاله: الله ناظر إليّ الله مطلع عليّ، قال
تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩].
٣. الخوف من السؤال أمام الله (عز وجل)؟ قال تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦].
٤. مجاهدة النفس وتعويدها على غض البصر والصبر على ذلك.
٥. اجتناب الأماكن التي يخشى الإنسان فيها من فتنة النظر كالجلوس في الطرقات أو الأسواق.
٦. صحبة الأخيار ، فإن المرء على دين خليله.